هذه ثقة اليقين فى أنها مسألة جاهزة وليست تحت الإعداد ، ومن الذى أعد ؟ إنه الله ، قوى القوى، قدرة القدر هى التى تعد، وهو يعدها على قدر سعة قدرته، عذاب مهين ، لأنه قد يتطاول أحد ويقول : أنا أتحمل العذاب ، كما قال الشاعر :

وتجلدى للشامتين أريهمو أنى لريب الدهر لا أتضعضع

فسبحانه يوضح : لن يلقى البخيل العذاب فقط ، بل سيلقى عذابا مهينا . ثم يأتى الحق سبحانه بالمقابل ، يأتى بغير البخيل ، فيقول :

﴿ وَالَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ ۗ وَمَن يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِينًا فَسَاءَ قَرِينًا ﴿٣٨﴾ ﴾

إن هذه الآية الكريمة تتحدث عن الذى ينفق ، لكن الغاية غير واضحة عنده . الغاية ضعيفة لأنه ينفق رئاء الناس ، إنه يريد بالإنفاق مراءاة الناس ، ولذلك يقول العارفون بفضل الله : اختر من يثمن عطاءك . فأنت عندما تعطى شيئاً لإنسان فهو يثمن هذا الشيء بإمكاناته وقدراته ، سواء بكلمة ثناء يقولها مثلاً أو بغير ذلك ، لكن العطاء لله كيف يُثَمِّنه سبحانه ؟ لابد أن يكون الثمن غالياً .

إذن فالعاقل ينظر لمن سيعطى النعمة ، ولنا الأسوة فى سيدنا عثمان رضى الله عنه عندما علم التجار أن هناك تجارة آتية له ، جاء كل التجار ليشتروا منه البضاعة ثم يبيعوها ليربحوا وقال لهم : جاءنى أكثر من ثمنكم ، وفى النهاية قال لهم : أنا بعتها لله - إذن فقد تاجر سيدنا عثمان مع الله ، فرفع من ثمن بضاعته ، فالذى يعطى لرئاء الناس نقول له : أنت خائب ، لأنك ما ثمنت نعمتك ، بل ألقيتها تافهة الثمن ، ماذا سيفعل لك الناس ؟ هم قد يحسدونك على نعمتك ويتمنون أن يأخذوها منك ،

فلماذا ترائيهم ؟ إذن فهذه صفقة فاشلة خاسرة ؛ ولذلك قال الحق :

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ﴾

(من الآية ١١١ من سورة التوبة)

ومادام سبحانه هو الذى اشترى فلابد أن الثمن كبير ، لأنه يعطى النعيم الذى ليس فيه أغيار ، ففى الجنة لا تفوت النعمة مؤمناً ، ولا هو يفوتها . فالذى يرائى الناس خاسر ، ولا يعرف أصول التجارة ؛ لأنه لم يعرف طعم التجارة مع الله ؛ ولذلك شبه عمله فى آية أخرى بقوله :

﴿ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٌ فَتَرَكَهُۥ صَلْدًا ﴾

(من الآية ٢٦٤ سورة البقرة)

و « الصفوان » هو المروة وجمعه مرو وهى حجارة بيض براقة ، والمروة ناعمة وليست خشنة . لكنْ بها بعض من الثنايا يدخل فيها التراب ؛ ولأن المروة ناعمة جداً فقليل من الماء ولو كان رذاذاً يذهب بالتراب . والذى ينفق ماله رئاء الناس هو من تتضح له قضية الإيمان ولكن لم يثبت الإيمان فى قلبه بعد ، فلو كنت تعلم أنك تريد أن تبيع سلعة وهناك تاجر يعطيك فيها ثمنا أغلى فلماذا تعطيها للأقل ثمنا ؟ إنك إن فعلت فقد خبت وخسرت فأوضح لك الحق : مادمت تريد رئاء الناس إذن فأنت ليس عندك إيمان بالذى يشترى بأغلى ، فتكون فى عالم الاقتصاد تاجرا فاشلاً ، ولذلك قلنا : ليحذر كل واحد حين يعطى أن يخاف من العطاء ، فالعطاء يستقبله الله بحسن الأجر ، ولكن عليه ألا يعطى بضجيج ودعاية تفضح عطاءه ؛ ولذلك قال النبى صلى الله عليه وسلم ـ ضمن السبعة الذين يظلهم الله فى ظله يوم لا ظل إلا ظله :

(رجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه)[1]

إنّ العبد الصالح حين يعطى فهو يعلم أن يده هى العليا ويده خير من اليد السفلى ، فليستر على الناس المحتاجين سفلية أيديهم ، ولا يجعلها واضحة . ولكن الحق سبحانه وتعالى لا يريد أن يضيق مجال الإعطاء فقال :

(٦) رواه أحمد والبخارى ومسلم والنسائى عن أبى هريرة .

﴿ إِن تُبْدُوا۟ ٱلصَّدَقَٰتِ فَنِعِمَّا هِىَ ۖ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّـَٔاتِكُمْ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٧١﴾ ﴾

(سورة البقرة)

فإبداء الصدقات لا مانع منه إن كان من يفعل ذلك يريد أن يكون أسوة ، المهم أن يخرج الرياء من القلب لحظة إعطاء الصدقة ، فالحق يوضح : إياك أن تنفق وفيك رئاء ، أما من يخرج الصدقة وفى قلبه رياء فالله لا يحرم المحتاجين من عطاء معطٍ ؛ لأنه سبحانه يؤكد : خذوا منه وهو الخاسر ؛ لأنه لن يأخذ ثواباً ، لكن المجتمع ينتفع .

إن الذين ينفقون أموالهم رئاء الناس هم من الذين « لا يؤمنون بالله » لأنه سبحانه هو المعطى ، وهو يحب أن يضع المسلم عطاءه فى يده « ولا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر » فلو كانوا يؤمنون باليوم الآخر لرأوا الجزاء الباقى ، فأنت إذا كنت تحب نعمتك فخذ النعمة وحاول أن تجعلها مثمرة . . أى كثيرة الثمار ، فالذى لم يتصدق من ماله ولم ينفقه حتى على نفسه يكون قد أنهى مسألة المال وعمر ماله معه عند هذا الحدّ ، أما الذى أنفقه فى سبيل الله فسيجده فى الآخرة ، فيكون قد أطال عمر ماله .

فالبخيل هو عدو ماله ؛ لأنه لم يستطع أن يثمره ، ولذلك يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الحديث الشريف :

« إن الله تعالى إذا كان يوم القيامة ينزل إلى العباد ليقضي بينهم وكل أمةٍ جاثية ، فأول من يدعو به رجل جمع القرآن ، ورجل قُتل فى سبيل الله ، ورجل كثير المال . فيقول الله للقارىء : ألم أعلمك ما أنزلت على رسولى ؟

قال : بلى يارب ، قال : فماذا عملت فيما علمت ؟ قال : كنت أقوم به آناء الليل وآناء النهار ، فيقول الله له : كذبت وتقول الملائكة : كذبت ، ويقول الله له : بل أردت أن يُقال : فلان قارىء فقد قيلَ ذلك ، ويؤتى بصاحب المال . . . . . . »[1]

لكن هل قال لك الدين : لا تفعل ؟ لا ، افعل لينتفع الناس بالرغم منك .

(١) رواه الترمذى فى الزهد ، وأخرجه ابن خزيمة ومسلم .

والبخيل عندما يُكَثِّر ماله يكون قد حرّم على نفسه هذا المال ثم يأتى ابن له يريد أن يستمتع بالمال ، ولذلك يقال فى الريف : مال الكُنزى للنزّهى ، ولا أحد بقادر أن يخدع خالقه أبداً !! فسبحانه يوضح : أنا أعطيتك نعمة أنت لم تعطها لأحد ، لكنى سأيسر السبيل لطائع لى ، إياك أن تظن أنك خدعتنى عندما بخلت ، فبخلك يقع عليك . إذن فأنت قد ضيقت رزقك بالبخل ولو أنفقت لأعطاك الله خيرا كثيرا « وما أنفقتم من شىء فهو يخلفه » لكنك تركته لورثتك وسيأخذونه ليكون رزقهم متسعاً ، وأيضاً فإنك حين تمنع المال عن غيرك فأنت قد يسرت سبيلاً لمن يبذل .

كيف ؟ لنفترض أن إنساناً كريماً ، وكرمه لا يدعه يتوارى من السائل ، والناس لها أمل فيه . وبعد ذلك لم ينهض دخله بتبعاته ، فإن كان عنده « فدانان » فهو يبيع فداناً ليفرج به على المحتاجين ، وعندما يبيع الفدان سيشتريه من يكتنز ، فيكون المكتنز قد يسّر سبيلاً للكريم ، فإياك أن تظن أنك قادر على خداع من خلقك وخلق الكون وأعطاك هذه النعمة ، وهذا يشبه صاحب السيئة الذى منّ الله عليه بالتوبة والرجوع إلى الله ، إننا نقول له : إياك أن تعتقد أنك اختلست شهوة من الله أبداً . أنت اختلست شهوة ستلهبك أخيراً ، وتجعلك تفعل حسنات مثلها عشرين مرة ، لأنه سبحانه قد قال :

﴿ إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ﴾

(من الآية ١١٤ سورة هود)

فأنت لن تضحك على خالقك لأنه سيجعلها وراءك ، فتعمل خيراً كثيراً ، كذلك البخيل نقول له : ستيسر سبيلاً لكريم بذّال ، والحق سبحانه وتعالى بيّن فى آخر الآية السبب الذى حمله على ذلك ، إن الأسباب متعددة . لكن تجمعها كلمة « شيطان » ، فكل من يمنعك من سبيل الهدى هو شيطان ، ابتداءً من شهوات نفسك وغفلة عقلك عن المنهج ، إنّها قرين سوء يزين لك الفحشاء ، ويزين لك الإثم ، إنّ وراء كل هذه الأمور شيطانا يوسوس إليك ، وكل هؤلاء نسميهم « شيطاناً » لأن الشيطان هو من يبعدك عن المنهج ، وهناك شياطين من الجن ، وشياطين من الإنس ، فالنفس حين تحدث الإنسان ألاّ يلتزم بالمنهج ؛ لأن التزامه بالمنهج سيفوت عليه فرصة شهوة ـ هى شيطان . إنّ النفس التى ترى الشهوة العاجلة وتضيع منها شهوة آجلة لا حدود لها ـ هى شيطان. فالشيطان إذن هو الذى جعلهم

يبخلون ويأمرون الناس بالبخل . . وهذا الشيطان وساعة يكون قريناً للإنسان ، فمعنى ذلك أنه مقترن به ، والقِرن بكسر القاف ـ هو من تنازله .

وكلمة « قَرْن » تطلق أيضاً على فترة من الزمن هي مائة عام ، لأنها تقرن الأجيال ببعضها ، فالشيطان قرين أي ملازم لصاحبه ومقترن به ، فيقول الحق : « ومن يكن الشيطان له قريناً فساء قريناً» ، أي بئس هذا القرين لأنه القرين الذي لا ينفعني ولا يصدني عن مجال ضار .

ولذلك فالناس قد يحب بعضهم بعضا في الدنيا لأنهم يجتمعون على معصية . أما في الآخرة فماذا يفعلون ؟ يقول الحق :

﴿ ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٦٧﴾ ﴾

(سورة الزخرف)

لأن المتقين يعين بعضهم بعضا على الطاعة ، فالواحد منهم يقول لصاحبه : كنت تعينني على الطاعة ، كنت توجهني وتذكرني إن غفلت ، فيزداد الحب بينهما . لكن الإنسان يلعن من أغواه وأول من نلعن يوم القيامة نلعن الشيطان ، وكذلك الشيطان أول ما يتبرأ يتبرأ منّا ، ولذلك فعندما تحين المجادلة نجد الشيطان يقول لمن أغواهم وأضلهم :

﴿ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِي ﴾

(من الآية ٢٢ سورة إبراهيم)

والسلطان هو : القوة العالية التي تجبر مَنْ دونها ، فالإنسان تُجبر مادته وبنيته بسلطان القهر المادي ، ويُقهر في اعتقاداته بالدليل والحجة . والإكراه في المادة إنما يتحكم في القالب ، لكنه لا يتحكم في القلب ، فقد تكون ضعيفًا أمام واحد قوى ولكنك تمسك له سوطا وتقول له : اسجد لي . اخضع ، فيسجد لك ويخضع . وأنت بذلك تقهر القالب ، لكنك لم تقهر القلب ، هذا هو السلطان المادي الذي يقهر القالب ، لكن إذا جاء لك إنسان بالحجج وأقنعك ، فهذا قهر إقناع ، وقدرة قهر العقول بالإقناع نوع من السلطان أيضاً .

إذن فالسلطان يأتى من ناحيتين : سلطان يقهر القالب ، وسلطان يقهر فقه القلب ، فسلطان القالب يجعلك تخضع قهراً عنك ، وسلطان الحجة والبرهان يجعلك تفعل برضى منك ، والشيطان يقول لمن اتبعوه : يا من جعلتمونى قريناً لكم لا تفارقونى ؛ أنتم أغبياء ؛ فليس لىَ عليكم سلطان ، وما كان لىَ من القوة بحيث أستطيع أن أرغمكم على أن ترتكبوا المعاصى ، وما كان عندى منطق ولا حجة لكى أقنعكم أن تفعلوا المعاصى ، لكنكم كنتم غافلين ، أنا أشرت لكم فقط فلست أملك قوة أقهر مادتكم بها ، ولا برهان عندى لأسيطر على عقولكم :

﴿ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوٓاْ أَنفُسَكُم ﴾

(من الآية ٢٢ سورة إبراهيم)

إذن فالخيبة منكم أنتم ، ولذلك يقول الحق :

﴿ مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ ﴾

(من الآية ٢٢ سورة إبراهيم)

ماذايعنى « مصرخكم »؟ إنها استغاثة واحد فى أزمة لا يقدر عليها وضاقت به الأسباب ، عندئذ يستنصر بغيره ، فيصرخ على غيره ، أى يناديهم لإنقاذه ولنجدته ، فالذى يستجيب له ويأتى لإنقاذه يقال له : أزال صراخه ، إذن فأصرخه يعنى سارع وأجاب صرخته ، والشيطان يقول : إن استنجدتم بى فلن أنجدكم وأنتم لن تنجدونى ، فكل واحد منا عرف مسئوليته وقدرته . وبالنسبة للإنسان فقد قال الحق :

﴿ وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِي عُنُقِهِۦ ﴾

(من الآية ١٣ سورة الإسراء)

فمن يتخذ الشيطان قريناً ، « فساء قرينا » وكلمة « ساء » مثل كلمة « بئس » كلتاهما تستعمل لذم وتقبيح الشىء أى ، فبئس أن يكون الشيطان قريناً لك ؛ لأن الشيطان أخذ على نفسه العهد أمام الله ألا يغوى من يطيعه سبحانه ويغوى مَن سواهم من الناس أجمعين .

وعندما نتأمل الآية ، نجد أن الحق يقول : ﴿ والذين ينفقون أموالهم رئاء الناس ولا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ومن يكن الشيطان له قرينا فساء قرينا ﴾ . فالآية إذن تتناول لونا من الإنفاق يحبط الله ثوابه . فنفقة المرائى تتعدى إلى نفع غيره لكن لا ينتفع المرائى منها ، بل تكون قد أنقصت من ماله ولم تثمر عند ربه .

والحق يلفتنا إلى أن ذلك كله راجع إلى معوقات الإيمان الذى يتطلب من الإنسان أن يكون فى كل حركات حياته على منهاج ربه ، هذه المعوقات تظهر فى النفس البشرية وفى شهواتها التى تزين الإقبال على المعصية للشهوة العاجلة ، وتزين الراحة فى ترك الأوامر ، والشيطان أيضاً يتمثل فى المعوقات ، والشيطان كما نعلم : اسم للعاصى من الجنس الثانى من المكلفين وهم الجن ويتمثل فى إبليس وفى جنوده ، ويطلق على كل متمرد من الإنس أيضا يقول تعالى : ﴿ وكذلك جعلنا لكل نبى عدواً شياطين الإنس والجن يوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول غرورا ﴾ وأنت حين تريد أن تعرف المعوق أهو من نفسك أم من الشيطان ؟ . فانظر إلى نفسك حيال المعصية ، أهى معصية تدفعك نفسك أن تأتيها وحدها ، أم معصية إن عزّ عليك أن تفعلها فأنت تنتقل إلى معصية سواها ؟ هل هى معصية ملازمة أو معصية تنتقل منها إلى غيرها ؟ .

فهب أن إنساناً كانت معصية نفسه فى أن يشتهى ما حُرّم عليه ، أو أن يسرق مال غيره ، نقول له : أوقفت فى المعصية عند هذه بحيث لا تتعداها إلى غيرها ؟ يقول نعم . فبقية المعاصى لا ألتفت إليها . نقول : تلك شهوة نفس ، فإن كانت المعصية حين تمتنع عليك من سرقة مثلاً فأنت تلتفت إلى معصية أخرى . فهذا لون من المعاصى ليس من حظ النفس ، وإنما هو حظ الشيطان منك ؛ لأن الشيطان يريد العاصى عاصياً على أى لون من المعصية ، فإن عزّ عليه أن يلوى زمامه إلى لون من المعصية ، انتقل إلى معصية أخرى لعلّه يصادف ناحية الضعف فيه .

لكن النفس حين تشتهى فإنها تشتهى شيئاً بعينه ، فأنت إذن تستطيع أن تعرف المعوق من قبل نفسك أم من قبل الشيطان ، فإن وقفت عند معصية واحدة لا تتعداها وتلح عليك هذه المعصية ، وكلما عزّ عليك باب من أبوابها تجد باباً آخر

لتصل إليها ، فتلك شهوة نفسك . وإن عزّت عليك معصية تنتقل إلى معصية أخرى فهذا من عمل الشيطان ؛ لأن الشيطان لا يريد عاصياً من لون واحد ، وإنما يريدك عاصياً على إطلاقك .

وعداوة الشيطان ـ كما نعلم ـ هي عداوة مسبقة ؛ فقد امتنع الشيطان عن السجود لآدم بحجة أنه خير من آدم . وحذر الله آدم . ولابد أن آدم عليه السلام قد نقل هذا التحذير لذريته وأعْلَمَهُم أن الشيطان عدو . ولكن الغفلة حين تسيطر على النفوس تفسح مجالا للشيطان لينفذ إلى نفس الإنسان ، والشيطان ـ كما نعرف ـ لا يأتي للعاصي الذي تغويه نفسه ؛ لأن العاصي تكفيه نفسه ؛ لذلك يأتي الشيطان للطائع ليفسد عليه طاعته ، ولهذا يقول الله عنه :

﴿ لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾

(من الآية ١٦ سورة الأعراف)

إذن فمقعد الشيطان ليس في الخمارة أو في مكان فساد ، إنما يجلس على باب المسجد ، لكي يفسد على كل ذاهب إلى الطاعة طاعته . وهذا معنى : « لأقعدن لهم صراطك المستقيم » ؛ ولذلك كانوا يقولون : إن الطوائف الأقلية غير المسلمة في أي بلد إسلامي لا تحدث بينهم الشحناء ، ولا البغضاء ، ولا حرق الزروع ولا سمّ المواشي ، ولا القتل ، وتأتي هذه المعاصي في جمهرة المسلمين ، نقول : نعم ؛ لأن الشيطان ضمن أن هؤلاء وصلوا إلى قمة المعصية فابتعد عن إغوائهم ، أما المسلمون فهم أهل الطريق المستقيم ، لذلك يركز الشيطان في عمله معهم ، إذن فمادام عمل الشيطان على الطريق المستقيم فهو يأتي لأصحاب منهج الهداية ، أما الفاسق بطبيعته ، والذي كَفَرَ كُفر القمة فالشيطان ليس له عمل معه ؛ لأنه فعل أكثر مما يطلب الشيطان من النفس البشرية .

والحق سبحانه وتعالى يقول : « والذين ينفقون أموالهم رئاء الناس » أي : أنفقوا وأنقصوا مالهم فلماذا المراءاة إذن ؟ لأن الشيطان قرينهم ، وعندما ينفقون فهذا عمل طاعة ، ولماذا يترك لهم هذا العمل ليسلم الثواب لهم ؟ فلا بد أن يفسد لهم هذا العمل الذي عملوه ، وهو يقول : « ومن يكن الشيطان له قريناً فساء قرينا » مثل هذا القرين أيمدح أم يذم ؟ إنه يذم بطبيعة الحال ؛ ولذلك قال الله : « فساء

قرينا » أى بئس ذلك القرين ، فالقرين الذى يلفتك عن فعل الخير هو الذى بعد أن أنقص مالك بالنفقة أفسد عليك الثواب بالرياء .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا ﴿٣٩﴾ ﴾

وقوله سبحانه : « وماذا عليهم » وأى تبعة ومشقة وضرر عليهم من الإيمان والإنفاق فى سبيل الله ؟ إنه سبحانه لم يستفهم منهم عما يصيبهم من ذلك ولكنه ـ جل شأنه ـ يَذُمُّهُمْ ويوبخهم ويصفهم ويصمهم بالجهل والغفلة عما ينفعهم .

فالتلميذ الذى يلعب ، فيرسب تقول له : وماذا عليك لو أنك ذاكرت ؟! يعنى أى ضرر عليك فى هذا ، إذن فمعنى ذلك أنها لا تقال إلا لإنسان فى قدرته أن يفعل الفعل ، فمثل هذا التلميذ يقدر أن يذاكر . لكننا لا نأتى لإنسان فيه صفة لا دخل له فيها كالقصر فى القامة مثلاً ثم نقول لك : ماذا عليك لو كنت طويلاً ؟! هذا قول لا ينفع ولا يصح .

إذن فماذا عليك . لا تقال إلا لمن فى قدرته الاختيارية أن يكون كذلك ، أما من لا يكون فى قدرته ألا يكون كذلك فلا تقال له . ونقول ذلك لأن طائفة الجبريّة قالت : إن الذى كفر لا يقدر أن يؤمن فالكافر يظل كافراً ، لكنهم لم يلتفتوا إلى قول ربنا : « وماذا عليهم لو آمنوا بالله واليوم الآخر » فمعنى هذا القول أن الباب مفتوح . وإلا لو كانوا ملزمين بالكفر لما قال ربنا : « وماذا عليهم » . وهذه الآية لا ترد فقط على مذهب الجبريّة ، بل تهدم مذهب الجبريّة كله . فالإنسان ليس مجبراً على فعل وتنتهى المسألة ، وكما يقولون : كالريشة فى مهب الريح . ومثلما قال الشاعر :

ألقاه فى اليم مكتوفاً وقال له
إياك إياك أن تبتل بالماء

نقول لهم : أنتم نسبتم لله ـ والعياذ بالله ـ الظلم ، فالله سبحانه وتعالى لم يطلب من الإنسان أن يؤمن به إلا وقد أودع فيه قوة اختيارية تختار بين البديلات . وأنتم لم تفطنوا إلى حقيقة كتابة كل شىء أزلاً فأخذتم منها الشىء الذى لا بد للناس أن تنفذه ، ولم تلتفتوا إلى أن هناك فرقاً بين أن يكون قد كتب ليلزم ، وأن يكون قد كتب لأنه علم .

هو سبحانه كتب لماذا ؟ لأنه علم أزلاً أن عبده سيختار كذا ويختار كذا . إذن فالكتابة ليست للإلزام ولكن لسبق العلم . والعلم صفة انكشاف لا صفة تأثير .

وحتى نوضح ذلك نقول : إن الصفات نوعان : صفة تكشف الأشياء على ما هى عليه بصرف النظر عن أن تقهر أو لا تقهر ، والقدرة صفة إبراز وليست صفة انكشاف ، ومثال ذلك عميد الكلية الذى يأتى فيقول لأستاذ مادة من المواد : جاءت لى مكافأة للطالب النابغ فى مادة كذا ، فاصنع اختباراً للطلاب حتى نعطى هذه الجائزة لمن يستحقها . فيقول أستاذ المادة : لا ضرورة للاختبار لأنى أعلمهم وأعرف مواقعهم من الجدّ ومواقعهم من الاجتهاد ومواقعهم من فقه العلم ، فلان هو الأول وأعطه الجائزة ، فلا يقتنع عميد الكلية ، ويضع هو اختباراً أو يأتى بأساتذة آخرين يضعون الاختبار دون هذا الأستاذ . وبعد ذلك يفوز الطالب الذى حدده الأستاذ مسبقاً بالدرجة الأولى .

أساعة أجاب الطالب عن الأسئلة التى وضعت له . أكان مع الطالب الذى فاز بالمركز الأول من يرغمه على أن يكتب المادة العلمية التى جعلته يحصل على الجائزة ؟ لا . فلماذا قال الأستاذ عنه ذلك ؟ لأنه علم بمن عنده قدرة من العلم . لقد حكم الأستاذ أولاً لأنه يعلم .

ولله المثل الأعلى من قبل ومن بعد ، فالحق سبحانه وتعالى أعطى للناس الاختيار

بين البديلات ، لكنه أوضح : أنا أعلم أن عبدى سيختار كذا وكذا . إذن فهذه سبق علم لا قهر قدرة . فالقدرة لها تأثير والعلم لا تأثير له ولا قهر . وقول الله هنا : « وماذا عليهم لو آمنوا بالله » فقوله : « وماذا عليهم » تعنى أى ضرر يلحقهم . كلمة « عليهم » دائماً تكشف للإنسان ما عليه ، لذلك لا يقول « لهم » بل يقول : أى ضرر كان يلحقهم لو أنهم آمنوا بالله ؛ ولذلك يقول الحق :

﴿ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمْ ﴾

(من الآية ٤٦ سورة البقرة)

لم يقل سبحانه : الذين يتيقنون . بل إن مجرد الظن بلقاء الله جعلهم يعملون الأعمال الصالحة ، فما بالك إذا كان العبد متيقناً ؟ إن المتيقن يقوم بالعمل الصالح من باب أولى . ولذلك فهذه المسألة أخرجت « المعرّى » عما اتهموه به من أنه ينكر البعث ، صحيح أنه فى أول حياته قال :

تحطمنا الأيام حتى كأننا زجاج ولكن لا يُعاد لنا سَبْكُ

فقالوا : إن قوله « لا يعاد له سبك » معناه أنه ينفى قدرة الحق على أن يبعثنا مرة ثانية ، مع أنه من الممكن أن يتأول فيها ، أى لا يعاد لنا سبك فى حياتنا هذه ، ونحن لا نرى من مات يعود مرة ثانية . ونقول كذلك: إن هذه قالها فى أول حياته . ولكنه قال فى آخر الأمر :

زعم المنجم والطبيب كلاهما لا تحشر الأجساد قلت إليكما
إن صح قولكما فلست بخاسر أو صح قولى فالخسار عليكما

فهو يطلب من الطبيب والمنجم أن يكفا عن إفساد العقول بالشك . وهب أنه اعتقد ألا بعث ، وواحد آخر اعتقد أن فيه بعثاً ، نقول له : إما أن يجىء بعث فيكذب من قال : لا بعث ، وإما ألا يجىء بعث ، فإذا لم يجىء البعث ، ما الذى ضر من آمن بالبعث ؟ وإذا جاء البعث فمن الذى خسر ؟ سيخسر من أنكره ، إذن فالذى ينكر البعث يخسر ولا يكسب ، لكن من قال : إن هناك بعثاً لا يخسر ، وهكذا .

وقول الحق : « وماذا عليهم » إنه تساؤل عن أى ضرر كان يلحقهم«لو أنهم آمنوا بالله واليوم الآخر وأنفقوا مما رزقهم الله » إن من يعطى الصدقة ويضعها فى يد الله يستثمرها عند المعطى ، لكن عندما يقوم بذلك رئاء الناس فهو يثمر عند من لا يعطى ، وبذلك يكونون قد خسروا أموالهم وخسروا تثمير الأموال فى يد الله بالثواب فى الآخرة .

« وماذا عليهم لو آمنوا بالله واليوم الآخر وأنفقوا مما رزقهم الله وكان الله بهم عليما » . وعلم الله متغلغل وسبحانه يعلم الخفايا . وسبحانه محيط بكل شيء علما ؛ لذلك يقول الحق بعد ذلك :

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٤٠﴾ ﴾

والظلم : الأصل فيه محبة الانتفاع بجهد غيره ، فعندما تظلم واحداً فهذا يعنى أنك تأخذ حقه ، وحقه ما جاء به بجهده وعرقه ، وتأخذه أنت بدون جهد ولا عرق . ويتبع هذا أن يكون الظالم قوياً . لكن ماذا عن الذى يظلم إنساناً لحساب إنسان آخر ؟ إنه لم ينتفع بظلمه ولكن غيره هو الذى انتفع . وهذا شرّ من الأول : عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (بادروا بالأعمال ستكون فتنا كقطع الليل المظلم يصبح الرجل مؤمناً ويمسى كافراً أو يمسى مؤمنا ويصبح كافرا يبيع دينه بعرض من الدنيا)[1] .

لأنه ظلم إنساناً لنفع عبد آخر ولم يأخذ هو شيئاً لنفسه .

إذن فالظلم إما أن يكون الانتفاع بثمرة جهد غيرك من غير كد ، وإما أن تنفع شخصا بجهد غيره ، والله سبحانه وتعالى إذا نظرنا إليه ـ وهو قوة القوى ـ إذا أراد أن يظلم ـ وحاشا لله أن يظلم ـ فماذا يكون شكل ظلمه ؟ إن الظلم يتناسب مع قوة

(١) رواه مسلم ، والترمذى ، وأحمد .

الظالم ، إذن فقوة القوى عندما تظلم فظلمها لا يُطاق ، ثم لماذا يظلم ؟ وماذا يريد أن يأخذ وهو من وهب ؟ إنه سبحانه مستغن ، ولن يأخذ من هذا ليعطى ذاك ، فكلهم بالنسبة له سواء ؛ لأنه سبحانه لم يتخذ صاحبةً ولا ولداً ، كلهم متساوون ، فلماذا يظلم ؟

إن الظلم بالنسبة لله محال عقلياً ومحال منطقياً ، فلا يمكن لله أن يضيع عمل حسنة ولا أن يضاعف سيئة . فهذه لا تتأتى ، وتلك لا تتأتى ، والله واهب كل النعم للناس جميعاً . ومادام هو من وهب كل النعم ، فسبحانه غير منتفع بآثاره فى خلقه . إن الحق سبحانه وتعالى ينفى عن نفسه الظلم فى قوله :

﴿ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٤٦﴾ ﴾

(من الآية ٤٦ سورة فصلت)

فكلمة « ظلّام » مثل قولنا : فلان « أكّال » وفلان « نوّام » . وهى تختلف عن قولنا : فلان نائم، يعنى نام مرة، ولكن «نوام» فهذا يعنى مداومته على النوم كثيراً، أى أنه إما أن يكون مبالغاً فى الحدث ، وإما أن يكون مكرراً للحدث ، فالمبالغة - كما نعرف - تأتى مرة لأن الحدث واحد لكنه قوى ، ومرة يكون الحدث عادياً لكنه مكرر ، هذه هى المبالغة ، فقوله سبحانه وتعالى : « وما ربك بظلّام » نفى للمبالغة ، وهذا لا يقتضى نفى غير المبالغة . ونقول : الله لو ظلم لكان ظلمه مناسبا قدرته فيكون كبيراً كثيراً ، ولو كان ظالما لشمل ظلمه وعمّ الخلق جميعا فيكون كذلك كبيراً كثيراً ولكن الله - سبحانه - يقول : « إن الله لا يظلم مثقال ذرة » . وسبحانه يحسب السيئة سيئة واحدة . أما الحسنة فيضاعفها ، « إن الله لا يظلم مثقال ذرة » « مثقال » : يعنى ثقل ووزن ، والثقل هو : مقدار جاذبية الأرض للشىء . فعندما يكون وزن الشىء قليلاً وتلقيه من أعلى ، فهو ينزل ببطء ، أما الشىء الثقيل فعندما تلقيه من أعلى فهو ينزل بسرعة ؛ لأن قوة الجاذبية له تكون أقوى ، والإنسان منا حين ينظر إلى كلمة « مثقال » ؛ ويعبر عنها بأنها وزن ، فمعيار الميزان هنا « الذرة » . وما « الذرة » ؟.

قال العلماء فيها : هى رأس النملة الصغيرة التى لا تكاد تُرى بالعين المجردة ، أو النملة نفسها . هذه مقولة ، أو الذرة كما قال ابن عباس حين سُئل عنها : أخذ شيئاً

من تراب الأرض ثم نفخه ، فلما نفخ تطاير التراب فى الهواء ، فقال لهم : كل واحدة من هذه اسمها « ذرة » وهو ما نسميه « الهباء » ، ونحن الآن الموجودين فى مكان واحد لا نرى شيئاً فى الجو ، لكن انظر إلى حزمة ضوئية ـ أى ثقب تدخل منه أشعة الشمس ـ فساعة ترى ثقباً يُدخل أشعة الشمس ترى غباراً كثيراً يسبح . والمهم أنك لا تراه جارياً إلا فى شعاع الشمس فقط ، فهو كان موجوداً ونستنشقه ، فما الذى جعلنى لا أراه ؟. لأنه بلغ من الصغر واللطف مبلغاً فوق طوق العين أن تراه ، فالذرة واحدة من هذا الغبار ،واسمه « الهباء » وواحدة الهباء هى الذرة .

إن الحق سبحانه وتعالى يوضح لنا : أن كل شىء موزون إلى أقل درجات الوزن وهو الذرة ، وهى الهباء ، ونحن لا نراها إلا فى نور محجوز ، لأننا فى النور القوى لا نرى تلك الذرات ، بل نراها فقط فى نور له مصدر واحد ونافذ ، والحق سبحانه وتعالى لا يظلم مثقال ذرة ، وهذا تمثيل فقط ؛ لأن الذرة يمكن أن تكبر ، فالذى يكبر يمكن أن يصغر ، وقال الحق ذلك ولم يكن عندالإنسانالمقياس الذى يُفتّت به الذرة ، وقد حدث أن استطاع الإنسان ذلك ، فبعد الحرب العالمية الأولى صنعت ألمانيا اسطوانات تحطيم الجوهر الفرد ، أو الجزء الذى لا يتجزأ كما كان يصفه الفلاسفة قديماً ، ومعنى جزء لا يتجزأ أى لا يمكن أن يأتى أقل منه . ولم يلتفتوا إلى أن أى شىء له مادة إن كان يقبل التكبير فهو أيضاً يقبل التصغير . والمهم أن توجد عند الإنسان الآلة التى تدرك الصغر .

ومثال ذلك عندما صعدت الأقمار الصناعية وأخذوا من الجو صورة لمدينة نيويورك ؛ خرجت الصورة صغيرة لمدينة نيويورك . بعد ذلك كبروا الصورة ؛ فأخرجوا أرقام السيارات التى كانت تسير ! . كيف حدث هذا ؟ لقد كانت الصورة الصغيرة تحتوى تفاصيل أكثر دقة لا تراها العين المجردة ، وعندما يتم تكبيرها يتضح كل شىء حتى أرقام السيارات وضحت بعد أن كانت غير ظاهرة ، وإن كنت موجوداً فى نيويورك فى هذه الساعة أكنت تظهر بها ؟ لا يمكن أن تظهر .. لماذا ؟ .. لأنّ صورتك صغرت إلى الحد والقدر الذى لا يمكنك أن تراها وهى بهذا الحجم وهكذا ، فالنور عندما يكون محزوماً ، فالحزمة الضوئية التى تدخل إلى مكان ما ، لها من القوة التى تظهر ذرة الهباء الذى لم تكن تراها .

إذن فنور من الله مخلوق ظهرت فيه الذرة ، أيخفى على نور الخالق ذرة ؟ لا يمكن أن تخفى عليه سبحانه ذرة ؛ لأن النور الذى خلقه أظهر الذرة والهباء الذى كان موجوداً ولا نراه ، فلن يخفى على نور النور ذرة فى الأرض .

وهكذا نعرف أن المسألة بالنسبة لله عملية قطعية ، وعندما اخترعوا اسطوانة تحطيم الجوهر الفرد كانت مثل عصارة القصب ، ونحن نعرف أن عود القصب يوضع بين عمودين من الحديد . والعمود الواحد اسمه « اسطوانة » وعندما يضيقون الاسطوانتين ثم يمررون عود القصب بينهما ، فلا بد أن تكون المسافة بينهما ضيقة حتى إذا نفذ عود القصب يُعصر ، إذن فكلما ضيقت بين الاسطوانتين يزداد العصر ، ومادامت الاسطوانتان تجرى كل واحدة منهما على الأخرى فهنا فراغ ضئيل جداً ، وحاول العلماء الألمان تضييق الاسطوانتين تضييقاً يفتت لنا هذه الذرة ، ونجحوا ، وأصبح هناك شيء آخر أقل من الذرة .

وظن السطحيون الذين يتربصون بالإسلام وبكتاب الله الدوائر ، ويريدون أن يجدوا فيه منفذاً . قالوا : إن الله قال : « فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره » . على أنها أقل شيء وظهر أن هناك أقل من مثقال ذرة ؛ لأن الذرة تحطمت . وقلنا لهؤلاء : أنتم أخذتم آية ونسيتم آيات ، فالقرآن قد جاء معجزة ليواجه مجتمعات شتى من لدن رسول الله إلى أن تقوم الساعة ، فلا بد أن يكون فيه ما يشبع العقول من لدن رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أن تقوم الساعة . ولو أن عطاء القرآن صُب مرة واحدة فى عصر الرسالة لجاءت القرون التالية وليس للقرآن عطاء . فأراد ربنا أن يكون القرآن هو المعجزة والمنهج المتضمن للأحكام والكليات ، وهذه أمور مفهومة بالنسبة لعهد رسول الله صلى الله عليه وسلم وإلى أن تقوم الساعة . لكن لا يزال هناك كونيات ونواميس للحق فى الوجود لم تظهر بعد ، فسبحانه يعطى كل عصر على قدر اتساع فهمه .

وعندما نعرف أسرار قضية كونية لا يزيد علينا حكم ، فعندما نعرف قضية مثلاً كقضية الذرة وتفتيتها ووجود إشارات لها فى القرآن الكريم لا يزيد ذلك علينا أى حكم . بل ظلت الأحكام كما هى . فالأحكام واضحة كل الوضوح ؛ لأن من

يفعلها يثاب ، ومن لا يفعلها يعاقب . والناس الذين ستقوم عليهم الساعة مثل الناس الذين عاصروا حضرة النبى عليه الصلاة والسلام ؛ لذلك لابد أن تكون الأحكام واحدة ، فمن ناحية أن القرآن كتاب أحكام فهذا أمر واضح وضوحاً لا زيادة فيه ، ولم يفهم المعاصر لرسول الله حكماً ثم جاء الإنسان فى زماننا ليفهم حكماً آخر ، بل كل الأحكام سواء .

والقرآن كمعجزة هو أيضاً معجزة للجميع . ولابد أن تكون هناك معجزة لكل جيل . ولكل عصر ، ويأتى الإعجاز فى الآيات الكونية التى لو لم نعرفها فلن يحدث شىء بالنسبة للأحكام . مثال ذلك : لو لم نعرف أن الأرض تدور أكان انتفاعنا بالأرض يقل ؟ لا . . فنحن ننتفع بالأرض سواء أعلمنا كرويتها أم لم نعلم ، لكن الحق سبحانه وتعالى يواجه العقول بما يمكن أن تطيقه . فإذا ما ارتقت العقول وتنورت واستنارت بمقتضى طموحاتها العلمية فى الكون . فالقرآن إن لم يؤيدها فهو لا يعارضها .

وعندما فتتوا الذرة قال المشككون : إن ربنا يضرب بالذرة المثل لأصغر شىء « ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره » لكن هناك ما هو أقل من الذرة . ونرد عليهم : أنتم نظرتم إلى آية ونسيتم آيات . أنتم لم تنتبهوا ـ كما قلنا ـ إلى أن من فتتوا الذرة إلى إلكترونات وأيونات وموجب وسالب حاولوا بعد ذلك أن يفتتوا ما فُتت . والآية التى نحن بصددها الآن : « إن الله لا يظلم مثقال ذرة » أرضت العقول التى تعرف الذرة الأصلية هذه واحدة ، ولماذا لا نسمع قول الله :

﴿ وَمَا تَكُونُ فِى شَأْنٍ وَمَا تَتْلُواْ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ ۚ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِى الْأَرْضِ وَلَا فِى السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٦١﴾ ﴾

(سورة يونس)

إذن فهناك ذرة وهناك أصغر من الذرة ، ولم تأخذوا فى بالكم أن « أصغر » هذه أفعل تفضيل ، ولا يوجد أصغر إلا إن وجد صغير ، إذن فهناك ذرة ، وهناك صغير

عن الذرة ، وهناك أصغر من الصغير ، فهناك إذن ثلاث مراحل ، فإن فتتوها فلنا رصيد فى القرآن يقول بالصغر ، فإن فتتم المفتت ، فلنا رصيد فى القرآن بأصغر ؛ ، لأن كل أصغر لا بد أن يسبقه صغير ، وإن كنت ستفتت المفتت فما زال عندنا رصيد من القرآن يسبق عقولكم فى الابتكار ، فإن قلت تفتيت جاز ، وإن قلت تجميع جاز ؛ لأنها أصغر وأكبر ، تفتيت أو تجميع ، والمعقول أنك تقول : لا يغيب الأصغر والصغير ، والذرة كذلك لا تغيب فكيف يعبر عن الأكبر بأنه لا يغيب مع أنه ظاهر وواضح ؟.

ونقول لك : إن المتكلم هو ربنا ، فالشيء لا يدرك إما لأنه لطيف فى غاية الدقة بحيث لا تتعلق به الباصرة فلا يُرى ، وأيضاً لا يُدرك لأنه كبير بصورة أكبر من أن تحيط به الباصرة ، فحين ترى جبلاً كبيراً على بعد اثنين من الكيلو مترات أو ثلاثة فأنت لا تدركه ؛ لأنه أكبر من أن يحيط به إشعاع بصرك ، ولكن الأمر بالنسبة لله يختلف فلا يوجد صغير يَدِقّ لا يراه ، ولا كبير يكبر لا يراه ، إذن فلا بد أن تأتى « ولا أصغر من ذلك ولا أكبر » . وفى آية أخرى يقول سبحانه :

﴿ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ ﴿٢﴾ ﴾

(سورة سبأ)

وانظروا إلى دقة الحق فى الرد على الإنكار للساعة وهى قضية كونية تنسحب على كل العصور . . فيقول سبحانه :

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَالِمِ الْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴿٣﴾ ﴾

(سورة سبأ)

كان يكفى أن يقول : إن الساعة آتية ، لكنه أوضح : اعرفوا أن الساعة آتية ، وكل ما فعلتموه معروف ، ولماذا يقولون : لا تأتى الساعة ؟ إن هذا لون من تكذيب النفس لأنهم لم يعملوا على مقتضى ما يتطلبه قيام الساعة ، فالذى لم يعمل لذلك يود

لأن من مصلحته ذلك ـ أن تكون مسألة الساعة كذب ؛ لأنه قد عمل أشياء يخاف أن يحاسب عليها ، فجاء سبحانه بالآية لكى تردّ على المقولة وعلى الدافع للمقولة . وكل مقولة لها دافع . لقد كان الدافع لمقولتهم هو إسرافهم على أنفسهم فلم يقدموا عملاً صالحاً فمن مصلحتهم الآمالية ألا تأتى الساعة ، كى لا يعاقبوا ، وسبحانه يعلم أزلا ما فعلوا وردّ على المقولة وردّ على الدافع الذهنى للمقولة ، فأوضح سبحانه : أنا عالم كل أمر ولن يغيب عنى عمل من أعمالكم .

وقول الحق فى الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها : « وإن تك حسنة » يعنى : وإن يكن الوزن لحسنة يضاعفها الله ، وعندما يحدثنا سبحانه عن الحسنة وأنها تضاعف ثم لا يتكلم عن السيئة فهذا يدل على أن السيئة بمثلها ، والحق قد تكلم عن المضاعفة للحسنة فى كثير من الآيات « والله يضاعف لمن يشاء » .

وفى آية أخرى يقول الحق :

﴿ مَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍ ﴾

(من الآية ٢٦١ سورة البقرة)

وبعد ذلك يقول :

﴿ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ﴾

(من الآية ٢٦١ سورة البقرة)

ففيه فرق بين نظام حساب الحسنات ونظام حساب السيئات ، فالحسنة تضاعف لعشر أمثالها لسبعمائة ضعف ، هذا هو نظام الحساب ، وإرادة خالق هذا النظام تعطى كما تريد ، إذا كنا نحن ـ كبشر ـ عندما نوظف واحداً نقول : أنت تدخل السلم الوظيفى ، وتبدأ السلم الوظيفى من أول درجاته ثم تترقى درجة بعد درجة ، ثم يأتى رئيس الدولة ليعينك فى درجة أعلى من ذلك بكثير ، فما بالنا بحساب الرب الأعلى ؟ إنه يعطى بعملية حسابية فيها زيادة فضل ؛ ولذلك قال بعد هذه الآية : « وإن تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجراً عظيماً » أى إنه سبحانه يعطى من عنده ذلك الأجر العظيم ، وهذا اسمه « محض الفضل » وكيف يسميه الله أجراً مع

أنه زائد ؟ لأن هذا الفضل جاء تابعا للأجر ، فإذا لم يعمل الإنسان هذا العمل فإنه لا يستحق أجراً ، وبالتالى فلا ينال فضلا وحين يضرب الله الأمثال للناس فذلك لتقريب المعانى ؛ لأن الله قاله والله صادق فيما يقول ، فيعطى الحق سبحانه وتعالى مُثلاً إيناسية فى الكون ، حتى لا تستبعد أن الحسنة تذهب لهذه الأضعاف المضاعفة . فيوضح لك : هذه الأرض أمامك هات حبة واحدة وضعها فى الأرض تخرج لك سبع سنابل وكل سنبلة فيها مائة حبة فإذا كانت الأرض ـ وهى مخلوقة لله ـ أعطت سبعمائة ضعف ، فكم يعطى من خلق الأرض ؟ إنه يعطى بغير حساب .

إذن فكلمة « من لدنه » هذه تعطيك الباب الواسع الذى يتناسب مع الله . فالأرض تعطيك على قدر جهدها ، وعلى قدر العناصر الغذائية الموجودة فيها . . والذى عنده وبيده الخير وخلق كل الكون يوضح : إذا كان خلق من خلقى يعطى حتى الكافر ، سبعمائة ضعف فالذى خلق هذا يعطى للمؤمن أجراً للحسنة بلا حدود ؛ ولذلك فالإيناسات التمثيلية فى الكون يتركها الله لتقرب للعقل المعنى البعيد الذى قد يقف فيه. فالإنسان منا مادة: هى البدن وتحل فيه الروح. وعندما تسحب الروح من البدن ، ماذا يصير؟ يصير الجسد رمة ، ويتحلل لعوامله الأولى وتنتهى منه مظاهر الحياة .

إذن فالروح هى السبب فى الحركة ، وفى أن كل جهاز يقوم بعمله ، وفى النمو ، وعندما تسحب الروح ينتهى الأمر ، إن الروح هى التى تدير كل هذا الجسم ، والروح لا لون لها ، ولا أحد يراها ، ولا يشمها كائن ، فكيف ندركها إذن ؟

نقول : إن الجوهر الذى يدخل فى جسدك ويعطيه الحركة فيديره . أنت لا تراه ولا تحسّه ، وهو غيب بالنسبة لك ، فإذا حُدّثت أن ربك غيب فلا تتعجب ، فروحك التى بين جنبيك لا تعرف كُنهها ، وعليك إذن أن تصدق عندما يقال لك : ربك ليس بمحدود بمكان وعندما يقول سبحانه :

﴿ لَا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَـٰرُ ﴾

(من الآية ١٠٣ سورة الأنعام)

فكلنا نقول : نعم هذا كلام صحيح ؛ لأنه إذا كان هناك مخلوق لله وهو الروح لم

تدركه الأبصار ، أفتريد أن يُدرَك من خَلَقَ ؟ لا يمكن.وهو سبحانه من عظمته أنه لا يُدرَك .

وسبحانه يقول : « ويؤت من لدنه أجراً عظيماً » ونقف عند كلمة « من لدنه » . ونعرف أن فيه فرقا بين الإتيان بالناموس ـ وهو النظام الموضوع ـ والعطاء المباشر ، وعندما يقول الحق : « من لدنه » فهذا يعنى أن الوسائط تمتنع . ونعلم قصة سيدنا موسى عندما ذهب ليقابل العبد الصالح قال تعالى فى وصف العبد الصالح :

﴿ وَعَلَّمْنَـٰهُ مِن لَّدُنَّا ﴾

(من الآية ٦٥ سورة الكهف)

وهذا يعنى أن العبد الصالح قد تعلم ليس بوساطة أحد . بل من الله مباشرة ، بدليل أن الذى جاء ليتعلم منه وتعلم منه ثم وقف معه فى أمور جاءت على خلاف ما تجرى به النواميس والعادات.فكلمة « من لدنا » تعنى تجاوز الحجب ، والوسائط ، والأنظمة .

والحق سبحانه يحترم أصل عملك ويسمى عطاءه لك « أجراً » ، لأنه أعطى من لدنه بعدما أعطى له النصيب المقدر كأجر ، وهذا الأجر موصوف بأنه عظيم؛لأنه مناسب للمعطى .

ثم يقول الحق :

﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَـٰؤُلَآءِ شَهِيدًا ﴿٤١﴾ ﴾

وساعة تسمع كلمة « كيف » فاعرف أن هناك شيئا عجيبا ، تقول مثلاً : أنت سببت السلطان فكيف إذا واجهوك ووجدته أمامك ماذا تفعل ؟ كأن مواجهة